كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس سوسيولوجية المؤسسة التربوية د. تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة السابعة: سؤال الأسرة في المقاربات الاجتماعية، أو كيف ندرس الأسرة؟

كأن الموت هوية ناقصة لا تكتمل إلا في مقبرة الأسرة

تمهيد:

الأسرة في الفكر الإنساني، مسألة قديمة–جديدة. قديمة قدم الفكر الأسطوري والفكر الاجتماعي عموما. وحديثة حداثة التفكير العلمي التجريبي. فالدراسات حول الأسر ة انتقلت من التفكير الفلسفي التأملي التجريدي (مع كونفشيوس، أفلاطون، أرسطو،...)، إلى التحليل العلمي السوسيولوجي (مع دوركايم، غوفمان، لوبلي، دي سانغلي، أندري ميشيل، بارسونز وميرتون وسوروكن...). فكان الفلاسفة ينظرون إلى الأسرة من زاوية **ما يجب أن يكون** (السعادة الأسرية، التربية، القرابة...). لكن مع التحليل السوسيولوجي (خصوصا مع ظهور علم الاجتماع الأسري) بدأ الاهتمام بالأسرة من زاوية الملموس (ما هو كائن وليس الممكن) بدراسة وظائفها، تغيراتها، أشكالها، وتفاعلاتها، وتأثيراتها... **فما هي إذن مستويات المقاربة السوسيولوجية المعاصرة للأسرة؟**

يجمع كافة العلماء والباحثين على أن الأسرة هي أقدم المؤسسات الإنسانية وأكثرها شيوعا. ويذهب البعض منهم إلى اعتبارها السبب المباشر في الحفاظ على الجنس البشري والإبقاء عليه حتى الآن. لكن ما يختلفون حوله هو تحديد تعريف جامع ووحيد للأسرة، وذلك نتيجة اختلاف المدارس والاتجاهات التي ينتمون إليها. فكيف إذن حدد علماء الاجتماع الأسرة سوسيولوجيا؟ وما هي أبرز المستويات المنهجية والتحليلية في التراث السوسيولوجي الأسري؟

أولا: المقارنة بين الأسرة والمؤسسات الاجتماعية (الأسرة كمؤسسة)

محاضرات في مقياس سوسيولوجية المؤسسة التربوية د. تالي جمال

من أبرز من تناول الأسرة من زاوية مقارنتها بالمؤسسات، عالم الاجتماع الفرنسي **اميل دوركايم** (1858-1917) بداعي أن السوسيولوجيا تحدد كعلم المؤسسات، لأنها تهتم بنشوء أصلها وطريقة (كيفية) اشتغالها ووظائفها. بما أن المؤسسات الاجتماعية (حسب دوركايم) هي طرق جماعية لردات الفعل والتفكير، وأن الأسرة هي مؤسسة اجتماعية، لأنها محكومة بذات القواعد والقوانين التي تحكم المؤسسات.

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الأسرة طريقة للتفكير ولمواجهة التغيرات داخل المجتمع.

المؤسسة كذلك توجد من خلال الممارسات والسلوكات التي يحملها الأفراد، وكذا نفس الشيء بالنسبة للأسرة فهي لن توجد سوى عن طريق الزواج والإنجاب، أي من خلال ممارسات الأفراد. فالمؤسسة محكومة بالضمير؛ وهنا الضمير الجمعي، والأسرة كذلك.

من خلال التعريف الذي قدمه **مارسيل موس**، باعتبار الأسرة مؤسسة هي مجموعة من الأنشطة الممارسة من طرف الأفراد والذين يجدون أنفسهم كمجموعة مع بعضهم البعض. نلمس تلك العلاقة القائمة (المشترك) بين المؤسسة والأسرة (الزوج والزوجة يكونون مؤسسة لأن لديهم مجموعة من الأنشطة يقومون بها مع بعضهم البعض.

إذن فكل التعاريف والتوصيفات التي تتسم بها المؤسسات تنطبق (من هذا المنظور) على الأسرة؟

فأندري تيرمول مثلا يعتبر أن المؤسسة تشكل نوعا من المرجعية، وبما أن الأسرة مؤسسة فهي تشكل مرجعية، هذا المرجع محاط بالعديد من القيم الثقافية.

لكن مع بداية القرن 20م، وخصوصا مع تراجع (اضمحلال) النظرية الداروينية في صيغتها الاجتماعية، وبروز محاولات رائدة في المنهج العلمي والتأكيد على

الدراسات الحقلية والميدانية (وخاصة على منوال **فريدريك لوبلي**)، تحول منهج البحث العلمي من دراسة الأسرة في الماضي (كالاهتمام مثلا بالمراحل الطبيعية للأسرة) إلى دراسة الأسرة في الحاضر (وظائفها، تغيراتها، أشكالها، وتفاعلاتها، وتأثيراتها...). ومن الدراسات الواسعة/الفضفاضة إلى الدراسات الحقلية/المتخصصة. فبدأ الاهتمام بالنظريات العائلية (الدور، الوظيفة، التفاعل، الموقف...) وبالمنهج بشكل خاص (البحوث الميدانية.

ثانيا: الدراسات الأسرية المتخصصة (دراسة الأسرة من حيث الوظائف، التفاعلات، الأشكال والتغيرات

سنقف هنا عند بعض النماذج، لأن الدراسات في هذا الجانب كثيرة ويصعب الإحاطة بها مثلا:

- **سناء الخولي:**

حاولت في دراستها " الأسرة والحياة العائلية "، الالتفات إلى جانب مهم وأساسي والمتعلق بالعلاقة (الجدلية) المتبادلة بين بناء الأسرة والعصرنة، التمدن والتحديث. فخلصت إلى مجموعة من النتائج والعلاقات التي تفسر مجموعة من الظواهر (التضامن الأسري، الاختيار الزواجي، العلاقات الأسرية، التقلص الأسري...). وتقول بهذا الصدد بأن التصنيع ساهم في تغير الأنماط الأسرية، كما أدى إلى إضعاف الروابط الاجتماعية (تراجع التضامن الأسري).

فبدأت الأسرة الممتدة تتراجع أمام اقتصاد مبني على التصنيع لصالح النووية. وتقول، الاقتصاد الصناعي يعتمد على الانجاز أكثر مما يعتمد على النسب، هذا يبدو واضحا في الرغبة في التحرر من الروابط القرابية، واختيار الزواج خارج نطاق القرابة. وهذا يدل (حسب الخولي) على أن الأسرة تتأثر بالتحولات التي تطرأ على باقي البنى الاجتماعية (الانتقال من النمط الزراعي إلى النمط الصناعي).

بمعنى أنه لا يمكن دراسة الأسرة بمعزل عن باقي النظم الاجتماعية والاقتصادية... وهذا ما أشارت إليه في تعريفها للأسرة في كتابها " الأسرة في عالم متغير ":بأنها ليست وحدة اجتماعية بسيطة وإنما نظام مركب ومعقد، وهو تنظيم له بناؤه ووظائفه، وله أهدافه وديناميته، ومن ثمة يؤثر ويتأثر بالمناخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المتغير.

- **ناصر فهد عبد الرحمان:**

في كتابه " دراسات في علم الاجتماع العائلي " (1997)، يعرف الأسرة بأنها تجمع طبيعي بين أشخاص تربط بينهم روابط الدم، تؤلف بينهم وحدة مادية ومعنوية، مكونين بذلك حياة معيشية مستقرة ومتفاعلة.

ويضيف؛ ولكل من أفرادها (الزوج والزوجة، الأب والأم، الابن والبنت)دور ه الاجتماعي الخاص به (مبدأ التكامل عند موريس)، كما لهم ثقافة مشتركة. أما في مسألة التبني في العالم الإسلامي فيقول؛ التبني لا يدخل في مفهوم الأسرة لأنه لا يترتب عليه نفس حقوق وواجبات الإنجاب، ولا يترتب عليه أي حقوق وواجبات إلا من باب الإحسان والتكافل.

- **ناصر فهد** اهتم كذلك بالأشكال، فهو الذي ميز بين ثلاثة أصناف من الأسر:

1. **الأسرة البنوية:** أسرة تصبح فيها السلطة لأحد الأبناء.
2. **الأسرة المتعادلة؛** الزوج والزوجة يتقاسمون السلطة، أي يملكون حظا متساويا من السلطة.
3. الأسرة البطريركية؛ مرتبطة بالنظام الأبوي والقبلي العرقي والممتدة.

كما حدد وظائف الأسرة في خمس أساسية: وظيفة الإنجاب + المحافظة المادية على أفرادها + منح المكانة الاجتماعية + التنشئة والإمداد العاطفي للأطفال + الضبط الاجتماعي.

- Frédéric teulion في كتابه : (sociologie et l'histoire sociale :1996)

حاول تقديم تعريف للأسرة، فهي في الأصل " familai" كلمة لاتينية، منحدرة من " famulus " والتي تشير في البداية إلى مجموعة من العبيد والخدم، ثم بعد ذلك تطلق على مجموعة الأفراد الذين يقطنون نفس الملكية، ثم في مرحلة أخرى صارت مجموعة أشخاص بينهم روابط دموية واجتماعية.

ف Frédéric حدد مفهوم الأسرة من الخلال التطور التاريخي والاجتماعي لمفردة." famulus "

ميز كذلك بين الأسرة في مفهومها العام، والأسرة في مفهومها الخاص الضيق:

المفهوم العام: أسرة؛ مجموعة أفراد تربط بينهم روابط قرابية (علاقات دموية).

المفهوم الخاص: وحدة منزلية(le ménage) ؛ مجموعة من الأشخاص يعيشون تحت سقف واحد سواء كانت بينهم علاقات قرابية أم لم تكن (وحدة/ فئة إحصائية).

إذن فكل أسرة هي وحدة منزلية (une ménage) بالضرورة، لكن ليس كل وحدة منزلية (une ménage) أسرة ، كما حدد Frédéric ثلاث وظائف أساسية للأسرة، وهي؛ الوظيفة البيولوجية (إعادة إنتاج الأجيال)، والوظيفة الثقافية (إعطاء وتحديد الهوية الاجتماعية للأفراد)، ثم الوظيفة الاقتصادية (الأسرة هي دائرة الإنتاج والاستهلاك للخيرات والمواد والخدمات.

إذا كانت سناء الخولي تركز على الأسرة من حيث التغيرات، وغفلت جوانب أخرى كالوظائف والأشكال. فناصر فهد عبد الرحمن هو بدوره اقتصر على جوانب دون أخرى، فهو درس الأشكال والوظائف وغفل عن التفاعلات والتأثيرات.

أما Frédéric قد اقتصر على التغيرات والوظائف، فأغفل الأشكال والتفاعلات والتأثيرات. لكن " لدراسة العلاقات والأوضاع العائلية يلزم أن نتبنى تصورا شموليا

(العوامل الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية...)، ومراعاة بعدها التاريخي وسيرورتها الدينامية (الأسس والخلفيات التي تنطلق منها).

فكيف نظر الباحثون في الأسرة إلى مسألة المنهج؟ وأي منهج قويم لدراستها؟

ثالثا: المنهجية في دراسة الأسرة:

أندري ميشيل في كتابها(la sociologie de la famille : 1970) ، تؤكد على ضرورة المزاوجة بين المناهج المستعملة في علم الاجتماع بشكل عام من جهة أولى. ومن جهة ثانية المناهج المستعملة في تخصصات أخرى (القانون، الدين...). ف Andreiتعطي أهمية كبيرة للمنهجية، وقالت بأن هناك منهجين أساسيين جديدين يستعملان في سوسيولوجيا الأسرة:

منهجية تاريخية؛ ينبغي أن يركز البحث على ثلاثة أجيال لدراسة التغير الأسري (دراسة خطية). أي دراسة التغيرات الأسرية دون إعطاء الاعتبار للمرجعيات. ونشير هنا الى ان هناك نظريات خطية تفسر التغيرات الاجتماعية ونظريات دائرية حسب تصنيفات العلماء للنظريات المفسرة للتغير الاجتماعي.

منهجية تجريبية؛ من خلال الملاحظة (ملاحظة السلوك البشري)، ومن خلال السؤال الشفوي سواء في المختبر أو البيت.

استطاعت Michel من خلال هذه المحاولة أن تؤسس لدراسات ميكروسوسيولوجية حول الأسرة.

مارتن سغلام في كتابه(la sociologie de la famille : 1986) ، عكس ما قالت به أندري ميشيل، فهو وإلى جانب دي سانغلي، يقول بأن المنهج التاريخي (Michel) غير معني داخل سوسيولوجيا الأسرة. وذلك لأن الأسرة هي مؤسسة متغيرة وقابلة

للتغير؛ إنها مجموعة من السيرورات الاجتماعية، السياسية، والاقتصادية. ففي كل حقبة أشكال أسرية اجتماعية مختلفة (وعندما تتغير الأشكال، تتغير الوظائف والممارسات).

رغم كل هذا **مارتن** يقول؛ التاريخ يصبح أساسي في معرفة ماضي الأسرة. اختلاف الباحثين في المناهج والمقاربات، أدى إلى تعدد وتباين النتائج من خلال الدراسات الأسرية. لكن نحن في حاجة إلى تصور شمولي يتناول (العوامل الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية...)، مع مراعاة بعدها التاريخي وسيرورتها الدينامية (الأسس والخلفيات التي تنطلق منها). (المختار الهراس، 1988)

إن ما ذكرناه آنفا يتكلم عن الأسرة في بعدها العالمي والعربي، لكن ماذا عن الأسرة في الجزائر؟ وما هي أهم الإسهامات العلمية التي حاولت دراستها كمؤسسة تربوية لها بيتها وشكلها ووظيفتها؟ ولعل الديناميكية التي ميّزت المجتمع الجزائري في عدة مراحل دغع الكثير من الباحثين خاصة في مجال علم الاجتماع الى طرح الكثير من التساؤلات حول جوهر تلك التغيرات الاجتماعية والثقافية التي يشهدها المجتمع الجزائري في المدينة والريف وحدود التباعد والتقارب بينهما، مستعملين في ذلك مقاربات سوسيولوجية مختلفة اختلاف انتماءاتهم الفكرية. وهو ما أثرى الحقل السوسيولوجي خاصة في مجال الدراسات التي تناولت التغير الاجتماعي وانعكاساته على مختلف المؤسسات فيه ومن بينها الأسرة وفي هذا المجال نذكر أبرز الإسهامات العلمية **لعبد القادر جغلول** الذي تناول الخلفية التاريخية التي تفسر تغير الأسرة في الجزائر، كما تناول **مصطفى بوتفنوشت** في مختلف أعماله العلمية التطور في خصائص الأسرة الجزائرية وعوامل انتقالها من النمط التقليدي إلى النمط الحديث والعوامل التي ارتبطت بها، خاصة بعد الاستقلال وما شهده المجتمع من تحولات.

كما قدّم **محمد بومخلوف** دراسة إحصائية ونظرية لأنماط الأسر ة الجزائرية، وهنا يجب أن نشير إلى أن الحصول على الإحصائيات الرسمية في حينها ليس بالأمر الهيّن أو السهل، وهناك تكتم رسمي عليها وما ينشره الديوان الوطني للإحصاء يفتقد للتحيين وتكون قد مرت عليه 5 سنوات على الأقل، وهو ما يشكل عائقا أمام الباحثين في تحليل التغيرات التي تعرفها الأسرة الجزائرية.

أما **رشيدة بن خليل** فقد تناولت التطورات الراهنة التي تعيشها الأسرة الجزائرية مع محاولة تقديم نظرة استشرافية لمستقبل الأسرة في الجزائر في ظل ما يشهده المجتمع من تحولات.

أما دراسة **محمد السويدي** فتعد مرجعا في فهم خصائص المجتمع الجزائري في ظل التغيرات التي عايشها كمجتمع معاصر، كما أثرت دراسة **عدي الهواري** الحقل السوسيولوجي بدراسته وتحليله لأهم التحولات التي حدثت في القرن العشرين في المجتمع الجزائري.

كما اهتم **لقجع عبد القادر** في دراساته بالتحولات التي تحدث في الأحياء الشعبية وانعكاساتها على التغيرات الاجتماعية، وطرح رؤية إستشرافية لبزوغ مجتمع جديد، كما ركز **مدني محمد** في دراساته على العلاقة بين السكن و التغير الاجتماعي و عملية الانفراد التي تمس العائلة الجزائرية وتأثير ها على سمات التحضر.

إن التغير في شكل ووظيفة الأسرة وبنيتها يعد مؤشرا قويا في عملية التغير الاجتماعي باعتبار الأسرة مركز العلاقات الاجتماعية وحقلا للتربية والتنشئة الاجتماعية، ولبنة أساسية في البناء الاجتماعي لأي مجتمع.

لذلك أخذت الأسرة في الجزائر أشكالا ووظائف تعكس طبيعة النظام الاقتصادي والقيم التي ينتجها في المجتمع، فما الأسرة الممتدة الا تمثيل لاقتصاد يعتمد على التضامن بين افراده والتكاسل والتراخي والتواكل على الغير، فكانت العائلة تتكون من

عدة اسر يعود فيها نمط السلطة للاكبر سنا، تماما كما في النظام السياسي والاقتصادي اذ الشرعية التار يخية استولت على التسيير والتدبير، لكن بانهيار هذا النموذج وما كر ّسه من ذهنية لدى الفرد الجزائري، انهار ت الاسر الممتدة لتحاول ان تأخذ شكلا يتطابق مع القيم التي ينتجها الاقتصاد الحر، قيم تؤمن الفردانية والعمل والحرية والاستقلالية.

لكن الاقتصاد الموجه لم يختفي بالكامل والاقتصاد الحر لم يطبق بالكامل رغم مرور ثلاث عقود فهناك تعايش بين نظام متناقضين، وهو ما افرز ازدواجية قيمية جعل شكل الأسرة يأخذ النمطين ولو مؤقتا.ولعل جوهر الأزمة في عدم الانتقال الكامل وطول المرحلة الانتقالية يعود بالأساس إلى اقتصاد الريع وسياسات شراء السلم الاجتماعي، التي أجلت قيام مجتمع جزائري يؤمن بكفاءاته وامكانياته في تحقيق النهضة.

المراجع المعتمدة:

أحمد سالم الأحمر : علم اجتماع الأسرة (بين التنظير والواقع المتغير)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت (لبنان(، ، 2004
عبد القادر القصير: الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية (دراسة ميدان ية في علم الاجتماع الحضري والأسري)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت(لبنان)، 1999
عبد المجيد سيد منصور، زكرياء أحمد الشربيني: الأسرة على مشارف القرن 21 ،دار الفكر العربي، القاهرة، 2000
السعيد عواشرية: الأسرة الجزائرية..إلى أين، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد12 ،جامعة باتنة جوان2005.